المتنبي رسول العروبة (١)

للأستاذ أمين الريحاني

ايها السادة والسيدات .

في العقد الاخير من السنة الأخيرة من القرن العاشر ، شاع في البلاد الاوربية إشاعة خطيرة خبيثة ، روّعت الناس والقتهم في بحر من اليأس والجزع ، إشاعة جسمتها الأوهام ، والأوهام كانت كالأوبئة في انتشارها ، وفي هول أخبارها ، نفخ الناس بالصور ، ودعوا بالويل والثبور ، ووعظ الواعظون في الكنائس ، ونادى المنادون في المدن والقرى أن استعدوا ليوم الدينونة فقد دنا ، ستخرب الدنيا وتنتهي الحياة ، في انتهاء السنة الاخيرة من الألف .

صدّق الناس ذلك ، صدقوه جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، فتركوا أعمالهم ، ونبذوا آمالهم ، وهجروا بيوتهم وعيالهم ، وراحوا يصلون في الكنائس . ويهيمون في البراري متورعين متضرعين ، تابوا إلى الله ، وشرعوا يتأهبون للموت ، وليوم الآخر يوم الدينونة

دقت السنة المخوفة وذر قرن شمسها الأولى ، فارتعشت له فرائص اولئك الآدميين المتعبدين ، ومرت السنة الألف بكاملها ، وغابت شمس يومها الأخير ، فتنفس الناس الصعداء . وشكروا رب الأرض والسماء ، لأنه رحمة بهم واستجابة لطلبات كهانهم كما زعموا ، اجّل سبحانه وتعالى ، يوم الفناء ألف سنة أخرى !

وفي تلك الحقبة السوداء الهائلة بينما كان الأوروبيون يتخبطون في دياجي الجهل ، مثقلةً نفوسهم بالخرافات والأوهام ، كان العرب في الشرق والغرب

(١) ألقيت في مهرجان المتنبي الذي أقامه المجمع العلمي العربي بدمشق في تموز سنة ١٩٣٦ .

في بلاد الشام وبلاد الأندلس ، يشعلون للعلم والفلسفة مصابيح وهّاجة جديدة ، ويرفعون الأدب والشعر أعلاماً وضّاءة مجيدة ، بينما كان الأوروبيون يستعدون لنهاية العالم ، كان العرب يجدون في بدايته ، وهم آخذون بنواحي الحياة ، يوردونها الموارد الكافية ويعززونها بالأعمال والآمال ؛ بينما كان أبناء أوربة يخيطون الأكفان ، كان أبناء يعرب يشيدون صروح الرقي البشري والعمران .

مرت السنون ، المئة منها تلو المئة ، والعرب في القرون الثمانية للهجرة حاملون مشاعيل المدنية شرقاً وغرباً ، من الهند والسند إلى الأندلس وما وراء البيرانيس ، وكانت تلك المدنية في انتقال مصابيحها منا إلى الفرنجة تزداد نوراً عندهم وتقل نوراً عندنا ، فانقلبت الآية ، وصرنا نحن ، بعد خمسة قرون مظلمة ، نخيط الأكفان بينما هم يجدون في تشييد صروح العلم ، وتعزيز أسباب العمران .

ولكن الأمم التي كان لها في نشر المدنية أيد بيضاء لا تضمحل بل هي خالدة في مآثرها ، وحية فتية على الدوام في يقظاتها ووثباتها ، وانها يوم تستيقظ تحمل مصابيح الرسالة ، كما حملتها في الماضي ، ويلحق المتأخر فيها بالمتقدم ، فتستعيد منزلتها العالية ، وتصبح من عوامل الخير الكبرى في العالم .

إن العرب لمن هذه الأمم الخالدة ، وإننا والأمم الأوربية اليوم مشتركون بالعقيدة الواحدة ، عقيدة النشوء الدائم والارتقاء المستمر ، عقيدة العمران المؤسسة على العلم والعمل ، وعلى الثقافة الجامعة العالية المقربة الامم بعضها من بعض .

وهذه الألف الثانية من دورة الزمان الحديث ندنو منها ثابتين في عقيدتنا ، واثقين بالله وبأنفسنا ، آمنين شر الأوهام والخرافات ، وعاملين في مكافحة شرور الجهل كلها ، فالأوربيون على عكس ما كانت عليه جدودهم في السنوات الأخيرة من القرن العاشرة ، يبنون اليوم باسم العلم

فتزداد الاختراعات والاكتشافات ، والفتوحات العالمية والاقتصادية ، ونحن العرب لنستيقظ من سباتنا الطويل الأجل ، فندرك ما كانت عليه جدودنا من علم وثقافة ، ومن شريف السجايا ، فنسعى لنكون جديرين بذلك الارث المجيـــد ، فتزداد في مساعينا همة ونشاطاً ، وتزداد طموحاً وثباتاً وأملاً .

أما اننا نعود إلى الماضي فلا لنقلده بحذافيره ، بل لنستنير بأنواره ، ونكمل الرسالة التي حملت الجدود أعلامها ، رسالة العلم والثقافة والرقي البشري ، وإننا اليوم في عودتنا إلى الماضي نقتدي بالأوربيين وقد سلكوا مسلكاً جديداً في العود إلى الماضي ليمجدوا الخالدين منه فيحتفلون بذكراهم الطيبة ويقيمون لها المهرجانات المئوية والألفية .

وقد كانت باكورة هذه الاحتفالات الذكرى السنوية للشاعر الايطالي العظيم دانته ، وتلاها منـذ بضع سنوات الاحتفال بذكرى الالفي سنة للشاعر الروماني المجيد فرجيل .

وفي السنة الماضية حذونا حذوهم ، فاحتفلنا في هذا الشرق الأدنى في إيران بمرور الألف سنة على وفاة الشاعر الفارسي الأكبر أبي القاسم الفردوسي ، فكان مهرجانه الألفي في طهران وطوس مهرجاناً عظيماً .

وها نحن في هذا العام ، بعد مرور ألف سنة على عهد في تاريخنا المجيد ، نحتفل الاحتفال الأول الاحتفال الألفي بشاعر العرب العظيم الخالد أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي .

ان في هذه الاحتفالات بأرباب الشعر والأدب دليـلاً على أننا في تقدم مستمر . فمن خياطة الاكفان إلى تشييد صروح الأدب والعمران مرحلة كبيرة . وان فيها الدليل الآخر على أن سنة العمران واحدة ، وخلقها ، وان تقطعت في حقبة من الدهر اتصال بعضها ببعض . يكفينا شر الحاضر أيها السادة والسيدات ، ولا يكفينا خيره . فيجب علينا أن

نضيف إليه خير الماضي ، وإن في هذا العمل الدليل الأكبر على أننا مدركون السر في سنة الرقي البشري ومنتفعون به .

أجل ، اننا لفي تقدم . وإني أرى في عالم الغيب ، بعد ألف سنة أخرى من دورة الزمان ، أمة من سلالتنا العربية ، تبني على ما بنيناه ، وتزيد ما أحرزته في عشرة قرون من العلوم الطبيعية والاقتصادية ، ومن الثقافات القومية والعالمية ، ومن الفلسفات الأدبية والروحية ، ومن الفنون الجميلة والصناعات كلها .

وسوف لا تنسى تلك الأمة وهي من لحمنا ودمنا ، من تقدموها ، وكانوا في مآثرهم مشرقين لها ممهدين سبيلها . سوف تقيم الحفلات الألفية والمئوية للمستحقين في ابنائها الأقدمين ، أرباب الفنون والعلوم ، وبينهم شاعرنا العربي العظيم أبو الطيب المتنبي .

نعم ، سيذكر أبو الطيب بعد ألف سنة كما نذكره اليوم ، فيقيم له عرب القرن الثلاثين ، المهرجان الألفي الثاني ، كما أقام أمس العالم الغربي مهرجان الألفين للشاعر الروماني فرجيل .

قلت : الشاعر العربي ، فقلت : الأمة العربية ، ذلك لأني ، على شدة إعجابي بالمتنبي ، لا أرى في شعره غير القليل مما يؤهله لأن يكون شاعراً عالمياً . إن شاعرنا العربي العالمي هو سوري المولد وقد جاء بعد أبي الطيب — ولد بعـد وفاته بنحو عشر سنوات — وكان من أول المعجبين بشعره .

فشرحه فيما أسماه معجز أحمد ، وبالغ في مدحه ، نعم ، نعم إن شاعرنا العربي العالمي إنما هو المعري أبو العلاء ، وستحتفل الأمة بذكراه الألفية في وقتها ان شاء الله ، وسيجيء العلماء والأدباء من أوربا واميركا وبلاد المشرق ، ليشاركوا بذلك الاحتفال .

عذراً على هذه الكلمة الاعتراضية ، التي أوجبها الاستدراك وقبل أن أدخل ، موضوعي « المتنبي رسول العروبة » ، يجب عليّ أن أمر

ـ وسأمر مسرعاً ـ ببعض ما أراه من مواطن الضعف والنقص ، ليس في شعره فقط ، بل في عبقريته أيضاً . على أني لا أقف عندما عابه عليه الناقدون قديماً أو حديثاً من الشواذات اللغوية ، اذ ليس ذلك من اختصاصي .

عندما بدأت أطالع ديوان المتنبي ، منذ ربع قرن ويزيد ، أخذت أعلق على الهامش ما كان يعنّ لي من خواطر الاعجاب أو الانتقاد . وأول ما قرأته في تلك النسخة ، كما عدت أمس إليها ، كلمة جاءت في احدى الصفحات الأولى تقول : « هذا شاعر شاب في صباه ، أو أنه في صبا جعل الشيب مما اتخذه حلية لصبابته » .

وفي تلك القصيدة التي مطلعها :

« كم قتيل كما قتلتُ شهيد »

المنظومة في صباه ، ومن الاعجاب بنفسه ، والكذب لها ، ما هو أعجب من الشيب المصطنع في رأسه ، ومع ذلك فان فيها من سحر بيانه ، وجليل معانيه ، ما ستسمعون فيما بعد بعضها .

أقف الآن عند المبالغة في شعره ، بل الاغراق ، بل الغلو ، وقد اهتم أدباء العرب لعظم تقديرهم هذا النوع من البديع اهتماماً خاصاً به ، فغلوه ، ودققوا فيه ، وقسموه إلى ثلاثة أقسام ، الممكن عادةً ، والممكن عقلاً لا عادةً ، وغير الممكن لا في العادات ولا في المعقولات ، وهذا الاخير المقصود الآن ، فان في ديوان المتنبي ، بل في الشعر العربي على الاطلاق بحراً منه هل أدركني روح الغلو فاستعرت « بحر » الشعراء لاعبر عن رأيي ؟

ولكني وأنا مع المتنبي وممدوحيه ، أمسك تورعاً ، فلا أتجاوز دور المستعرض المستعجب ، فما هؤلاء الممدوحون من الناس ، بل هم من الأرباب ، وكل واحد منهم يستطيع ، إذا أراد الشاعر أن ينقل الجبال

ويحمل النجوم في الرحال ، ويغدق منها على الأسد والأشبال ، ويقول حتى للبحر هال هال !

هو ذا سيف الدولة ، والبحر عبد من عبيده ، أو ساهل من خيله ، فقد تجاوز المتنبي المبتذل في مدحه ، فما قال إنه البحر ، بل قال إن البحر أطراف أنامله ، وما قال إنه طود من الأطواد ، بل أشار إلى أن تربل (جبل في آسيا الصغرى) يليق أن يكون حجراً ثميناً في خاتم نصره .

فهل تعجب بعد هذا لقوله :

« إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض »

وهل يغالي الشاعر في خوفه على النجوم إذا حاربت سيف الدولة :

وقد زعموا أن النجوم خوالدٌ ولو حاربته ناح فيها الثوا كلُ
وما كان أدناها له لو أرادها وألطفها لو أنه المتناول

ان هي إلاّ خيالات صبيانية . وليس كافور في ساعة الوغى أقل صولة واقتداراً من الرب العربي . فهو كذلك يركب الأهوال ، ويضرب الجاجم بالبيض الطوال ، ويهب الهبات الغواليا ، ولا يفعل الفعلات الاعذاريا . ولا تظنه لسواده يخفى على الشمس ، أو يتوارى رحمة بها . فقد قال المتنبي فيه وفيها :

تفضح الشمسَ كلما ذرت الشمـ ـسُ بشمس منيرة سوداء

بل قال أكثر من ذلك . قال أن تلك الشمس شمسنا لا تغيب إلا باذن منه ، أي من كافور !

هو ذا المتنبي في شيء من غلوه . وقد يكون من أمره أن تصوره الجبابرة ، واختياره اياهم لمديحه ، هو من باب الرغبة بالأضداد ، فقد كان هو في جسمه صغيراً نحيلا على ما يظهر من قوله :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجلٌ لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وقد سبقه الشاعر بشار إلى هذا الخيال فذرنا في جسمه المهزيل قائلاً

« لو توكأت عليه لانهدمْ »

ان في الشعر العربي من هذا الغلو شيئاً كثيراً . ولا تجوز اضاعة الوقت في احصاء الأمثال منه . كفى أن نذكر الخدود التي تجرحها خطرات النسيم ، والبنان الذي يدميه لمس الحرير ، وتلك الفتانة التي اذا كلمت ميتاً يقوم من اللحد .

ان لمثل هذا الغلو مسارح في الغرب تمثل عليها الروايات الهزلية ، فيجيء فيها وفي أغانيها ونكاتها ، ما يضاهيه من مضحكات التشابيه والكنايات . وهي تندر في شعر الفرنجة الا ان يكون من باب المجون .

على أن المتنبي لم يكن ماجناً في حياته الشعرية . فانك لا تسمع في ديوانه ضحكةً واحدة ، وقلما ترى الابتسام خيالاً ، العفو قد استعجلت في الاطلاق فقد اضحكتني — ومن لا تضحكه ؟ — الشمس السوداء شمس كافور ، التي كانت تفضح شمسنا المسكينة كلما أشرقت .

ما سوى ذلك ، فالمتنبي قطب مجد وقوة ، وطود هول وجلال . بل هو في الجلال والمجد روح عابس قمطرير . وإننا إذا قارنا بينه وبين شعراء العالم الكبار كشكسبير وهوغو وغوته وهوميروس تراه بينهم ، ساعة يضحكون ، اعجوبة من اعاجيب العبقرية . فان لكل من أولئك الشعراء العالمين ناحية من مناحي العبقرية لألاءة ، يخفف نور ابتسامها من اعباء الحياة ، أو يزيدنا نشاطاً وصبراً وأملاً في احتمالها . ان هذه الناحية مفقودة في المتنبي ، ناقصة في عبقريته .

أما اذا كانت الناحية المضحكة من الحياة دون اهتمامه ، فان في عالمه العالي المجيد الذي يدور على محور الفروسية والملك والشعر والكرم ، ما يستوجب في تدوين أخباره وتمجيد اعلامه مراعاة القاعدة الأساسية في كل فن وصناعة ، أي قاعدة التناسب والانسجام .

ليس المتنبي الشاعر العربي الوحيد الذي لا يرعى دائماً هذه القاعدة فالانسجام في الشعر العربي يكاد ينحصر في الالفاظ وفي الصيغ اللغوية . اما في المعاني فهو نادر وكثيراً ما تجيء المعاني مستقلة بعضها عن بعض ،

ومتقلقلة في قصائد اكثر الشعراء . فتقرأ القصيدة عكساً أو طرداً ، او تبدأ في الوسط منها دون أن تدرك أو تشعر ان معنى الشاعر اختل او اعتل او جاء مبتوراً ، هذا فضلاً عن التفاوت في الفكر والخيال في القصيدة الواحدة ، وهي كثيراً ما تشبه قلادة يتخلل لؤلؤها كثير من الخشلب (اللفظة للمتنبي) .

فالشاعر في لامية العرب مثلاً يفتخر ببطولته ، ويفاخر بها الأبطال ثم ينتقل فوراً من ساحة الوغى الى السماط فيقول :

وان مدت الايدي الى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ

فأين الصلة أو شبه الصلة ، وأين التناسب والانسجام بين الموقفين والمعنيين ؟

وما هذا الخلل المعنوي بقليل في ديوان المتنبي . فقد فتحته ذات يوم خيرةً ، فكان في ما قرأت من أول قصيدة يمدح فيها سيف الدولة ، قوله في وصف البطل الحبيب :

ويضحي غبارُ الخيل أدنى ستوره وآخرُها نشرُ الكباء الملازمُ

فما هي يا ترى الستور الاخرى بين غبار الخيل ودخان البخور ؟ إنها لصورة شعرية جميلة ، ولكنها في الغلو مضللة . ساعة البخور في خيمة الاعرابي أو في ديوانه ، وساعة خيله في ساحات الوغى ، لا تتصلان ولا تتناسبان . فضلاً عن ان الحقيقة هي خلاف ما تصوره الشاعر . فالامير العربي ، ولا فرق بين من عرفت في رحلاتي العربية ، وبين من كان في أيام سيف الدولة ، لا يحمل بخوره الى الحرب ، واذا حمله فلا يستر بستر دخانه

وأشبه بهذا التنافر في البيت الواحد ما نجده بينه وبين البيت الذي يليه . فان الصلة مفقودة بين معناه ومعنى البيت السابق . ولا أثر لاشارة الانتقال من أمير كثير الستور الى قوله :

وما استعربت عيني فراقاً رأيته ولا علمتني غير ما القلب عالمُ

على أن في هذه القصيدة وصفاً للجيش يقصر دونه هوميروس في الياذته ، وقد لا نجد في شعر العالم مثل هذه الصورة في إيجازها وبلاغتها وهول حقيقتها . فقد وصف المتنبي جيش سيف الدولة يصحبه الى ساحة الوغى جيش من العقبان فقال :

سحاب من العقبان يزحف تحتها سحاب ، اذا استسقت سقتها صوارمه

اي اذا استسقت العقبان الجيش سقاها بصوارمه من دم الاعداء . هي ذي ذروة عالية رائعة من ذرى البلاغة ، وصورة هائلة من صور الحرب ، ولكن الشاعر يقف عندها تعباً كليلاً ، بل يقف كليل البصر ، كليل النفس ، كليل الخيال ، وباليته وقف بكلكله عندها ، فهو يصطدم هناك بنفسه ، ويهبط واياها ، يتدهور — الكلمة الوضعية يسف — نعم يسف إسفافاً مفجعاً فيقول :

سلكتُ صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزمٍ مؤيداتٍ قوائمه

فيدخل على فخامة المشهد وروعته ، بل على حوله وهوله صورة الشاعر ، وقد ركب من عزمه جواداً قوي القوائم ، وجاء ينشد سيف الدولة ويشدو به ، فوقف في أروع مجالي المديح ليقول انه هو كذلك عظيم الشأن رفيع الجناب .

ومن التقلقل في معانيه وخلو سبكها الفني والمنطقي من الانسجام ، ما جاء في أول القصيدة التي يرثي فيها أخت سيف الدولة :

أجلُّ قدرك أن تسمي مؤبنة ومن يصفك فقد سمّاكِ للعربِ

هذا مفهوم مقبول :

غدرت يا موت كم أفنيت من عددٍ بمن أصبت وكم اسكت من لجبِ

وهذا مفهوم مقبول معقول

أما البيت الذي يجيء بينها فهو يعترض المعنى اعتراض الشاعر لسياق القصيدة في أماكن شتى من ديوانه ، ويقطع الصلة المنطقية والفنية قطعاً جازماً :

لا يملك الطَّربُ المحزونُ منطقهُ ودمعه وهما في قبضة الطربِ

ليت شعري هل تفقد القصيدة شيئاً كثيراً أو قليلا من قيمتها لو لم يكن هذا البيت ، وفيه ما فيه من تفسير الماء بالماء ، وفيه كذلك لفظة معناها المألوف أي الطرب هو غير ما يريده الشاعر ، إذ أنه يريد بالطرب الحزن فيلتبس المعنى على القارىء غير المتضلع من اللغة .

أما وقفات الشاعر الشخصية في قصائده ليلفت النظر إلى نفسه بل ليهنئها ، ويفخر ويفاخر بها ، فهي تقطع على القارىء لذته العقلية والفنية ، وتكدر مشربه مما سبق من حلاوة المعاني والألفاظ . وفي القصيدة السيفية التي تقدم ذكرها يعترض الشاعر سياقها المنطقي والفني ثلاث مرات ! ولو ترفق بنا أو فضّل الفن على الانانية لختمها بذلك البيت الفريد في بلاغته :

سحابٌ من العقبان يزحف تحتها سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمه

على أن لهذه الوقفات الشخصية قيمتها العالية في رسالة المروءة وستذكر في محلها . إنما من العدل أن اقول الآن إنه في بعض هذه المواقف التي يعرض فيها عن ممدوحه ليمدح نفسه ، يريحنا من ضرب الجماجم وركوب الأهوال في سبيل الفناء والمحال .

قلت إني لا أعنى بما في شعر المتنبي من الشوارد والشواذات اللغوية ، ومن التعقد والارتباك في الصيغ البيانية ، ومن الاغراب والاعجام والغموض والابهام ، فان لها من الاختصاصيين من يعنون بها . وقد عنوا بها ، قديماً وحديثاً ، ووفوها حقها .

انما أريد ان اشير ها هنا الى حسنة من محاسن شعره غير الصافية ، وإن نوه بها جميع من كتبوا عن المتنبي مدحاً وانتقاداً .

أريد بهذه الحسنة إشارته اللطيفة في معانيه ، فهي حيناً لطيفةٌ مفهومة وحيناً ترهق منك اللطف والفهم ، فتعجز كل العجز وتحتمي بالكلمة المأثورة المعنى في قلب الشاعر .

فيا قلب شاعرنا ، ما قول صاحبك :

« فتى ألف جزء رأيه في زمانه .

وما معناه في البيت الحسابي الآخر :

« أحادٌ أم سُداسٌ في أحاد »

وماذا تريد يا قلب في قول صاحبك :

« وقلن دفراً والدهيم فما ترى »

وما معنى قوله كشف الله عنك وعنه :

وكلُّ شريكٍ في السرور بمُصبَحي   أرى بعده من لا يرى مثله بعدي

هذه الألغاز الحسابية ، والأسرار اللغوية ، والاشادات البعيدة عن الأفهام العربية يجيئنا الشاعر بها حباً بالابداع ورغبةً بالاغراب ، فيختلف في تفسيرها وشرحها جهابذة اللغة ، بل تتضارب فيها آراؤهم ، ولا يبلغون بعد كد القريحة وإجهاد النفس ، وبعد التحكيم في الاجتهاد والتحمل في الاستنباط لا يبلغون اقول ، الفاء والهاء من فهمنا ، فتظل الألغاز ألغازاً ، ولا يستقيم في تلك « الاشارات اللطيفة » غير الغموض .

لا وقت لنا أيها السادة والسيدات ، لمثل هذه الترهات الشعرية في هذا الزمان ، زمان العمل والسرعة . لا وقت لدينا نضيعه في درس معميات شاعر مهما عظم شأنه ، وعلا قدره وقد نلبسها بعد إضاعة الوقت في درسها ، أثواباً من التأويل والتفسير لم تخطر للشاعر في بال .

أعيد بهذه المناسبة ما قلته مراراً في القوالب الشعرية القاسية ، قوالبنا العربية التي تحكم غالباً على الشاعر بما في شعره وقوافيه لفظاً ومعنىً من الخزعبلات والركاكات ، وان للقوالب الشعرية شركاء في هذه الذنوب اللغوية والبيانية والفنية . منها الكسل الفكري ، وعدم الاكتراث والعجب بالنفس ، وعجزها ، وتعمد الاغراب والابداع .

اما الشعر الصافي ، الشعر العالي الممتاز في معانيه وصيغه وفي صوره وقوافيه ، فهو لا يحتاج الى تفسير وتأويل . هذه دواوين الشعر العالي في الشرق وفي الغرب فانك لا تجد فيها بيتاً من الشعر يحتاج الى حاشية

ذات سطر واحد لتفسير أو اشرح معناه .

إن الشعر الصافي العالي لمثل نور الشمس في صفائه وبهائه . وإنه لمثل ماء السواقي في جريه وفي خريره ، وإنه في جمال فنه لمثل الورد كلله ندى الصباح . تقرأ هذا الشعر فتدخل معانيه القلب والعقل منك بسهولة النور والماء ، وبسهولة عرف الطيب والهواء ، وبسهولة لفظ الحبيب للحاء والباء .

ان المتنبي مقدرة فائقة في تصريف الكلام وتشقيقه . وإن له تفنناً عجيباً في تقديمه وتأخيره وفي اقتضاب حذافيره . ولكنه لا يبالي بما يلحق بالمعنى من غموض وتشويه ، وهو يتوسع بالمعنى السخيف في بعض الأحايين فيزيده سخافة . مثال ذلك أبياته الجوفاء في تقبيل رسوم الروم لكم سيف الدولة . وهي من أسخف مجاملاته .

وان له في التناقض الفكري ما يزري بالمعقول البسيط ولا يبالي بالذوق السليم فهو في نفس واحد ، في بيتين متحاذيين ، زبنة لسيف الدولة ، ورب للشعر والكائنات .

وما أنا إلاّ سمهريٌ حملته ...

وما الدهر إلاّ من رواة قصائدي ...

فلو جاء الشطر الأول في اول القصيدة مثلاً ، والشطر الثاني في آخرها ، لما ضج التناقض على القارئ هذه الضجة المنكرة .

وكثيراً ما يلبس المعاني السخيفة ثوباً من الألفاظ الفخمة الطنانة ، فيسترها فلا تفضح . خذ قوله في عفافه :

ويمنع ثغره من كل صبٍّ   ويمنحه البشامة والأراكا

فهل تظن ان البشامة والأراك اسمي ملكين من ملائكة الفردوس ، أو حوريتين من حور الجنان ؟ البشامة : واحدة البشام وهو مثل الأراك شجر يستاك بعيدانه .

أي إن هذا الرجل العظيم ، الذي قلما ينزل من عليـــاء الفخامة الشعرية يقول إنه يمنع ثغره من تقبيل كل صب ، ويمنح هـذه اللذة المسواك !

قلت ليس في الديوان ضحكة واحـدة فأخطأت . ان في المسواك الضحكة الكبرى .

قبل ان انتقل من هذه الناحية من الموضوع ، يجب أن أقول كلة في صور المتنبي الشعرية ، كلة لا بد منها ، ما زلنا في مواطن الضعف والنقص من شعره . إن صوره الشعرية محدودة ، وهي في الغالب صناعية تقليدية لا علاقة فيها ولا أثر للعقل المقرون بالروح ، أي للخيال الذي تغذيه الرؤيا ، فالغيث عنده للجود ، والاسد للشجاعة ، والشمس للمجد ، والبحر للعظمة ، والجبل للقوة ، والبدر والنجوم للسمو والعلى . ولكن له في هذه الاستعارات والكنايات ، التي كانت مبتذلة حتى في زمانه تفنناً عجيباً هو ركن من أركان عبقريته .

وان مواضيعه مثل استعاراته محدودة ، ذلك لأنه استوحى بيئته فقط ، بل استوحى ما يرى في الحياة ، وما مد ببصره وبصيرته الى ما لا يرى . وانه في ما يرى ما رأى غير اصحاب السيادة والجاه . ولا عجب فما صاحب هذا العربي العظيم غير الأمراء والأعيان من الناس ، فزينت له أحوالهم ناحية من الحياة ، نعبر عنها اليوم بالارستقراطية .

وليس في شعر المتنبي ، اذا استثنينا غزله وبعض المناحي الشخصية التي يلين فيها عنفوانه ، وتنكش جوانب كبريائه ليس فيه شيء من رقة العواطف ووداعة الشعور ؛ ليس فيه انفاع الفيلسوف ، وليس فيه ورع الرجل الصالح التقي . وقـد تستغربون قولي إني لم اجد في كل الديوان ذكراً للرحمة اللهم الا في بيت واحد .

مرة واحدة يجيء ذكر الرحمة في ديوان هـذا العبقري العربي ،

فكأنه كون على الشكل الذي تصورة الفيلسوف الالماني « نيتشه » بعده بتسعمائة سنة . كأنه كون على شكل السوبرمان . إنمـــا الحق للقوة ، وإنما الدنيا للقوة ، أما الشفقة فان هي إلاّ ضعف وضلال ! السوبرمان المتنبي . مرة واحدة يذكر الرحمة ، وقد يكون ذلك عرضاً .

أأحزم ذي لبٍّ وأكرم ذي يدٍ وأشجع ذي قلب وأرحم ذي كبدِ

هو المهدي الذي يشبه ابن العميد به . ولا بد للمهـدي من الرحمة تكملة لفضائله ، على أنه من الممكن أن تكون اللفظة قـد جاءت زينة وزيادة — أكرم أحزم أرحم — في الطباق البياني .

بالرغم عما تقدم اقول ما قال الهمذاني : « المتنبي ابن عصرنا » فهو لا يزال اليوم كما كان في ذلك الزمان ابن عصرنا ، بل اقول ما قاله فيه الثعالبي مع تصحيح صغير في ظاهره ، كبير في حقيقته . قال الثعالبي « المتنبي واسطة عقد الدهر » (وان كانت العبارة لا تحتمل التدقيق) إنه واسطة عقد الدهر في العروبة وفي الشعر .

بهـذا التصحيح أدخل الموضوع الذي يظهر لي في أعلى منزلة من الأهمية ، فلولا العروبة في المتنبي ، العروبة الممتازة بنطقها ، وبروحها ، وبطولتها ، لما اهتممنا اليوم بشعره وعبقريته هذا الاهتمام .

أما ما رمي به من سفالة الأخلاق فقال بعض أبناء زمانه ، ورددها الناقدون : إنه كان جباناً ومحبا المال وبخيلاً ، فقد أمست ولا قيمة لها في تقديرنا عبقريته ، حتى وإن اعتقدنا أن من رموه بها نزيهون صادقون .

ولكننا ننساها كما ننسى شوارده اللغوية والشعرية ، وكما ننسى شواذاته ومعمياته الصناعية ، وكما سينسى الناس في المستقبل ما سيفقد قيمته الدائمة من وصفه المعارك ، وتمجيده للحروب .

ما الذي يبقى بعد ذلك من المتنبي ؟ يبقى من المتنبي شعره الصافي ، وتبقى الرسالة العربية . وقد تصير هذه الرسالة عالمية إنسانية ، إذا جردت مما يثقلها من أسباب السيادات القديمة ، ومثلها العليـا الآخذة بالتضاؤل

إذا أردتُ كميتَ اللونِ صافيةً وجدتُها وحبيبُ النفسِ مفقودُ
ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبه أني بما أنا شاكٍ منه محسودُ

* * *

هو ذا يا سادتي شيء من الحياة البشرية خالد ، وقد صوره الشاعر صورة صادقة بلغة خالدة .

إن هذه الناحية من شعر المتنبي تدوم في جدتها وقوة فعلها في النفس ما دام في العالم ناطق بالضاد ، وسيرددها العربي بعد ألف سنة ، كما رددها هذا العربي في هجرته بأميركا ، وفي عزلته بلبنان .

هي ذي إحدى الناحيتين الخالدتين من شعره ، وسيطنب غيري في معالجتها فيستجلون بدائعها وروائعهـــا ، إن كان في الغزل أو الوصف أو التباريح .

أما الناحية الأخرى الخالدة . فهي التي تنحصر بالعروبة ورسالتها الثقافية ، الروحية والسياسية . ومن الغريب أن تجيء هذه الرسالة في ما امس عندنا من مبتذل الشعر ، أي في المديح . على أنها في نظري أعطت مديح المتنبي تلك الصفة التي تشترك والصناعة الشعرية في خلوده ، وقد تكون العامل الاكبر فيه . إن هذه الصفة ظاهرة في مديحه كله ، منذ صباه في بوادي الشام وحواضرها ، الى أيامه الاخيرة في كنف ابن العميد وعضد الدولة ببلاد فارس ، فقد بدأ بمدح عربي :

« خير قريش أباً وأمجدها ... »

وانتهى بمدح من كان عربي اللسان والثقافة في الأقل ، أي عضد الدولة .

أروح وقد ختمتَ على فؤادي بحبك أنْ يحلَّ به سواكا

وكان الشعر في هذا القول أصدق الصادقين . فقد لقي حتفه على يد ذلك الفاتك الفير الأسدي بعد بضعة عشر يوماً من نظم قصيدته هذه الاخيرة ، فما حل في فؤاده حب بعد حبه لعضد الدولة . وكذلك كان عربياً اول من مدح ، وعربي اللسان والثقافة آخرهم .

والزوال ، نعم ، يا سادتي سيشجب المستقبل الحرب شجباً حاسماً عاماً ، وسينقل الى المتاحف للدرس والاعتبار كل ما في الآداب والفنون الراقية من آثار الحروب وأخبارها

أما الشعر الصافي في المتنبي ، فانه في المنزلة الأولى شعر عربي ، سحره في ألفاظه وفي صيغه ، وفي لهجته وديباجته ، وفي مزيته الموسيقية المطربة ، إننا لنسحر بشعر المتنبي ، قبل أن ندرك معانيه . إن رنات الألفاظ وجلجلة القوافي ، لتدخلان القلوب في انسجام ألحانها ، قبل أن يدخل معناها العقول .

أجل ، اننا لنسحر بشعر المتنبي ونحن نردده وننشده . ونترنم بقوافيه . ثم نسحر في هـذا الشعر الصافي بالخالد من معانيه . ولكننا ونحن نترنم بقوافيه تعلق رناتها وغمغمات اصواتها ، في الاذن وفي النفس ، فترسب في العقل الباطن فتمسي قسماً غنائياً منه ، يردده صداه على الدوام دون ان يشترك بهذا العمل العقل والادراك .

فكم مرة سمعت أُذني صوت النفس يردد ابياتاً المتنبي من بعض قصائده المشهورة . وكم من مرة في عهد التنازع العقلي الروحي العاطفي ، سمعت صوت المتنبي ، وقد تموج في بحر الزمان والفضاء إليَّ فأدركني في نيويورك كما أدركني في البادية ، وأنا أردد صدى قوافيه الخالدة .

أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ

* * *

ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

* * *

كلما أنبت الزمانُ قناةً ركّبَ المرءُ في القناة سنانا

* * *

وإذا كانت النفوسُ كباراً تعبت في مرادها الأجسامُ

* * *

وما هي هذه العروبة التي تغنى بها المتنبي ، ومجّدها ، ونشر أعلامها في كل بلد حلّه من هذا الشرق الادنى ؟ قد يدهشكم قولي إنها لم تكن كلها في من مدحهم المتنبي . بل قد كانت بأجمعها ، وبأبهى مظاهرها ، في المتنبي نفسه . وقد يستغرب قولي إنه في مدحه سيف الدولة مثلاً أو ابي الشائر ، أو ابن العميد ، كان يمدح ذلك العربي الذي يدعى المتنبي ، كان يتغنى بتلك الصفات الشريفة العالية التي يشعر أنها صفاته ، او يشتهي ان تكون صفاته ، فتنعكس على قلمه وفي قوافيه مدحاً يخص به من عرفوا قدره وأكبروا عبقريته العربية .

أقول إن المتنبي في مدحه سيف الدولة مثلاً كان يمدح نفسه . ولا أقول إنه كان يفعل ذلك بادراك منه ، أو بحس ظاهر فيه . إنما عقله الباطن العربي كان يملي عليه ويسخره لنشر اعلام المثل العليا العربية في الناس بواسطة أفراد كبار من الناس .

وقد عاش المتنبي ، كما لا يخفى على من له اقل الملم بحياته وعصره ، يوم كانت الشعوبية ضاربة أطنابها شرقاً وغرباً ، وعاملة لافساد العروبة وهدم أركانها . بيد أن الدولة الحمدانية في تلك الأيام كانت حصن العروبة الأحصن ، وعلمها الأعلم ، ونورها الأنور الألمع ، وعندما نقول الدولة الحمدانية نقول سيف الدولة ، وعندما نقول سيف الدولة ، نقول المتنبي .

المتنبي ذلك الروح العبقري الذي أحيا كل ما لمس بنظره وقوله - البادية ومن فيها ، المعارك وقواضبها وعواليها ، الخيل وفرسانها ، المجالس الشعرية وأنوارها التي كانت تترجرج حوله ترجرج النجوم حول القمر ، والربيع في شعب بوّان ، والأسد والغزلان ، أحياها كلها في شعره كما أحيا كل من مدح وهجا ، وكل من قال فيه ولو قافية حافية .

المتنبي ذلك الروح العربي المشتعل حماساً ، المتوهج شعراً ، المتلألئ ذكاء ، المتموج حباً وحنيناً ، المتعالي عظمةً ومجداً ، ذلك الروح القلق الثائر الحائر المضطرب المشرق المغرب في البوادي والحواضر ، الحامل

بين جنبيه ناراً قدسية ، وأنواراً سماوية يشعلها ويضرمها في كل مكان ، باسم ربيعة وتميم وتنوخ ، بل باسم قحطان وعدنان ، بل باسم العروبة الباسطة أجنحتها فوق القبائل والعواصم جمعاء .

هاكم المتنبي في العواصم العربية ، وفي العواصم التي كان يشعل فيها روحاً عربية .

هاكم المتنبي بشممه بسموه ، بعظمته بطموحه ، بكل ما ورثه من أجداده الفاتحين ، ومن أرباب الشعر الخالدين ، وهو دائماً يريد من زمانه ما ليس يبلغه في نفسه الزمان .

هاكم المتنبي في العواصم العربية وغير العربية - في حمص وحلب وانطاكية ، في لبنان وبعلبك والشام ، في طبريه ، في مصر ، في شيراز .

وقد كان في تشريقه وتغريبه ، وفي حله وترحاله ، كالبرق الخاطف تارة ، وطوراً كالرعد القاصف ، وقد كان كنور الشمس في الشروق في الهجيرة . وقد كان حيناً كالعرف الطيب في ساعات المساء الساكنة ، وحينا كالاعصار في البحار ، وكالسموم في البادية . وقد كان قبل ذلك وبعد ذلك صوتاً عالياً خالداً ردده الدهر قبلنا ، وسيردده الدهر بعدنا ، كما نردده نحن الآن .

أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت ... وإذا نطقت فانني الجوزاءُ

* * *

تحقيرُ عندي همتي كل مطلب ... ويقصر في عيني المدى المتطاولُ

* * *

وأني إذا باشرت أمراً أريده ... تدانت أقاصيه وهان أشدّهُ

* * *

الخيل والليل والبيداء تعرفني ... والسيف والرمح والقرطاس والقلمُ

* * *

هو ذا المتنبي في جوله وصوله ، وفي عظمته ومجده . هو ذا العربي الذي يقول في العربي إنه :

رجلٌ طينه من العنبر الورد وطين العباد من صلصال

ويقول :

للشمس فيه وللسحاب وللبحـا ر وللأسود وللرياح شمائلُ

هو ذا الروح العربي الصميم الذي كان يصيح بالعرب المذبذبين بين العروبة والشعوبية :

وإنما الناس بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عجمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذمم

هو ذا الروح العبقري العربي الذي جاب البلاد شرقاً وغرباً فبشر بالعروبة ، وحث عليها ، ورفع عالياً أعلامها .

وما كان المتنبي في تجواله ، على جدة ما شاهد من التكريم ، ووفرة ما لاقى من التعظيم ، ما كان ليرى بلاد العرب بلاده فما عاب على « افصح الناس طراً » اي ابن العميد الا انه في بلاد غير عربية . وما جمع بينها في أرجان غير العروبة والثقافة العربية العالية . وعندما خرج وعضد الدولة للصيد بدشت لارزن ، ذكرته وحوشها بغزلان نجد وأنعامها .

إن في ضواحي شيراز مكاناً هو من أجمل ما في الدنيا ، اسمه « شعب بوّان » وصفه المتنبي وصفاً بليغاً ، ثم قال ، وقـــد حمله الحنين الى مراتع صباه :

أحب حمصاً الى خناصرةٍ وكلُّ نفسٍ تحب محياها

لقد حمل المتنبي بلاده في قلبه حيثما قذفت به أنواء الزمان ، فتغزل وهو في شيراز بحسان دمشق . وقال وهو مأخوذ بمغاني شعب بوّان .

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسانِ

وقد ذكر في تلك الجنان تفاح لبنان ، وحن وهو في أرجان إلى

من ودعهم في العراق . ولفرط شوقه الى دمشق ومنازلها ، كان يرى خيالها مصاحباً له ، حتى في أجمل مشاهد العجم الطبيعية والاجتماعية .

ايها السادة — ان لكل شاعر بلادين ، بلاد خياله ، وبلاد مولده وأجداده ، وهو يقيم حيناً في هذه ، وحيناً في تلك . تارة يكون مثل إخوته في مراتعهم ومنازعهم ، وطوراً يصعد الى دنيا خياله ، فيبعد منهم ويعلو عليهم ، ويظل مع ذلك يذكرهم بكل ما في دنياه العليا من محسنات الوجود ، ومكملات الحياة . وإن له بين البلادين موطىء قدم لاستراحة أشواقه وآماله ، هو قسمته من الحياة الدنيا . ولكن همه الأكبر حتى ها هنا هو أن ينقل شيئاً من دنيا الخيال إلى دنيا الجدود . وان أحزانه وأفراحه تقاس بما يستحيل ، وبما يمكن أن ينقله لنا من عالمه الأعلى .

كذلك كان للمتنبي وطنان يتنازعان فؤاده . والتنازع في قلب الشاعر شديد على قدر خياله أو وحيه ، وقل على قدر سكرانه الشعرية . فان له سكرات هي النعيم ؛ تلوها يقظات هي الجحيم . اذ يرى نفسه في عالم أجداده ، ولا يرى غير القليل مما يريده لاخوانه من عالمه الأعلى . ولكنه يجد بعض التسلية بمديح من يمدحهم ، بل هو يغدق عليهم من فيض روحه دواء لأشجانه ، وبلسماً لجروحه . ومع ذلك فلا مهرب له من اليأس ؛ ولا ملجأ من السأم والملل غير النظم ، ثم النظم ثم النظم . فهل يلام إذا افتخر بنفسه ليعيد إليها نشاطها وأملها ؟

مفرشي صهوة الحصان ولكـ ـن قميصي مسرودةٌ من حديدِ
أبداً أقطع البلاد ونجمي في نحوسٍ وعمتي في سعود

وإذا ما اشتد اليأس عليه وكان أشده يأسه في قومه يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

ولكنه هو العربي الأبر ، يستدرك فيذكر في البيت التالي قائلاً :

وبهم فخرُ كل من نطق الضا دوعوذ الجاني وغوث الطريدِ

إن جدود المتنبي جدودنا . وإن عروبته عروبتنا . وإن كل ما في ممدوحيه وكل ما في نفسه من الفضائل عملا وقوة هي من معونة تلك العروبة ، الكرم والشمم ، والشجاعة والاقدام والفروسية والأريحية ، والمروءة والعفاف ، والصبر والصدق والوفاء ، كل هذه الفضائل يراها المتنبي في عالمه الاعلى وينقلها على لسان شعره الى عالم مولده وأجداده ، فيراها مجسمة في ممدوحيه ، ويرى نفسه كامنةً فيها . لولا ذلك لما استرعت عظيم إعجابه ، واستحقت خوالد قوافيه .

جميلة هي المعالي في شعره ، ولكنها في أعمال من يسمون لها ويدركونها أجمل وأعلى .

وقد كانت تلك الفضائل تلج في صدره كلما مدح عربياً أيا كان . فتراه يلين حتى لاعداء سيف الدولة لبنى كلاب وبني كعب ، ويسأله الرفق بهم لأنهم من العرب .

إذا لم يُرْعِ سيدهم عليهم ... فمن يُرْعي عليهم أو يغارُ
تفرقهم وإياه السجايا ... ويجمعهم وإياه النجار

ثم قال يخاطب سيف الدولة :

لهم حق بشركك في نزارٍ ... وأدنى الشرك في أصلٍ جوارُ

ويوم كان معتقلا في حمص قال في جدود الأمير واليها :

سعوا للمعالي وهم صبيةٌ ... وسادوا وجادوا وهم في المهود

هو العقل الباطن . وما حمل من رسالة العروبة ، فجدود الأمير هم جدود المتنبي ، كما أن جدود المتنبي جدودنا ، وإذا رابك من الأمر شيء ، أو انحل فيك حبل الثقة بربك وبنفسك ، فاسمع المتنبي يناديك قائلاً :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ ... بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع الذ ... لّ ولو كان في جنان الخلود

هذا ما كان يقوله لسيف الدولة ممدوحه ولنفسه ، هـذا ما كان

عليه عليه العقل الباطن ، ليبدد من أمامه غيوم اليأس ويقيه العثار والهوان أو ليس هو القائل :

من يهنْ يسهل الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ

قلت ان المتنبي كان يزين ممدوحيه بتلك الشمائل التي حمل معدنها في نفسه ، أو بالحري وجده في عالمه الأعلى . وان بين هذا العالم الاعلى وأعماق النفس حلقة خفية قد تكون بعيدة كما هي في عامة الناس ، وقد تكون على قيد شعرة كما هي في الشاعر الكبير ، شاعر قومه وشاعر الانسانية .

وليس المتنبي منفرداً في هذا التمجيد القومي . فان له في سائر الأمم المتمدنة زملاء وإخواناً حتى من الشعراء العالميين الكبار ، يكفي أن أذكر منهم شكسبير الذي يمجد الانكليز في أبطاله التاريخية ، وهوغو يمجد الفرنسيس في شخص نابليون الأول ، ودنته يمجد اللاتين في رجال حزبه السياسي .

ولا يفوتنكم ان في كل من هؤلاء العباقرة يعمل العقل الباطن عمله فيملي عليهم في مجموع ما رسب فيه من تراث الاجداد ، وثقافة الاجيال وقد يضيف اليها العبقري ما يتجلى له في تحليقه الشعري أو ساعة الفيض والتنزيل من المثل العليا في شتى مناحي الحياة .

كذلك كان المتنبي في سكراته الشعرية مسيراً بعوامل العقل الباطن أي العوامل الداخلية ، وبالفيض الشعري والخيال اي العوامل الخارجية . وهو فيها كلها عربي قح ، لا يلبس من مدحهم ، أبطاله ، غير الفضائل التي ذكرت ، الفضائل العربية ، وفي المنزلة الأولى منها : الشجاعة والكرم .

وإن من الفضائل ما لا ينفصل عن الشجاعة . فالشجاع قوي ، والقوي صادق ، والصادق شريف صريح أبي . فهل من ينكر على العرب الشجاعة والصراحة في القوم ، والمجابهة في العداء ؟

إذا تولوا عداوةً كشفوا ... وإن تولوا صنيعةً كتموا

والشجاعة تمنع من البخل ، لأن فيه خوف الفقر ، وهو ضرب من الجبانة ، والجود يمنع من الجبن ، لأن فيه الحرص على الروح وهو ضرب من البخل : هذا ما يعنيه المتنبي في قوله الوجيز البليغ في سيف الدولة :

هو الشجاع يعد البخل من جبن ... وهو الجواد يعد الجبن من بخل

فالشجاع في نظره كريم ، والكريم شجاع . وقلما كان يرى السجية الواحدة دون الأخرى . هما سجيتان عربيتان متلازمتان . وإن المثل الأعلى في الاثنين ليتجلى في ممدوحيه العرب ، بل في ممدوحيه جميعاً ، من الأمراء كانوا ، أو من العلماء ، أو من أهل البر والتقوى .

خذ مثلاً قصيدته في ابن ابي الاصبع ، واحدى قصائده في ابن اسحق التنوخي ، فلولا الاسم في القصيدة لظننت ان المتنبي يمدح سيف الدولة .

كأنك في الاعطاء للمال مبغض ... وفي كل حرب للمنية عاشق

هذا ابن اسحق التنوخي .

ترك الصنائع كالقواطع بارقا ... ت والمعالي كالعوالي شرعا

وهذا ابن ابي الأصبع الذي لم يكن في القواريء بل كان كاتباً ، وقد قال في ابن زريق الطرسوسي ما لم يقل هوميروس مثله في رب أرباب الاغريق .

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه ... لما أتى الظلمات صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه ... في يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ... ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه ... عبدت فكان العالمون مجوسا
لما سمعت به سمعت بواحد ... ورأيته فرأيت منه خميسا
ولحظت أنمله فسلن مواهباً ... ولمست منصله فسال نفوسا

فهل تجاوز هذا الغلو والعلو في كل ما قاله في سيف الدولة ؟

هو العقل الباطن يملي على المتنبي فيمدح في ممدوحيه خير ما في عالمه

الأعلى وخير ما في أعماق نفسه . بل هو يمجد العرب والعروبة في ممدوحيه جميعاً . كأني به كان يقول قبل ان يباشر النظم : هذا الرجل من سادات العرب ، فيجب أن يكون له من شمائل العرب أشرفها وأعلاها أو أنه يقول : هؤلاء هم العرب وأنا منهم ، فكيف لا تكون العظمة من سجاياهم ، وكيف لا اكون أنا عظيما ؟ اني لا أرى في الوجهين حقيقة رائعة .

وانا أن نقول دون أن نتوغل في درس العوامل النفسية والباطنية ، إن المتنبي في مدحه الكرم والشجاعة ، والمروءة والوفاء ، وحب القوة والمجد ، أصاب ما في نفس كل عربي في زمانه وبعده ، كما يصيب ما في انفسنا اليوم وغداً .

إنما تنجح المقالة في المر ... ء إذا وافقت هوى في الفؤاد

وكيف لا يكبر العربي ، ويعتز بعروبته عندما يقرأ في أحد ملوك العرب قول شاعر العرب :

أرى كل ذي ملك اليك مصيره ... كأنك بحر والملوك جداول
إذا مطرت منهم ومنك سحائب ... فوابلهم طل وطلك وابل

أيها السادة والسيدات ؛

لا تظنوني أسلي نفسي بالمحال ، وأحاول أن أسليكم بعذب الأقوال ، إن الشمائل التي حمل المتنبي أعلامها ، وجعلها المثل الأعلى في سيادة الناس ، بل في الناس أجمعين ، لجديرة بأن يتحلى بها ، ويتخذها سنة في أعماله كل من كان سيداً في الناس . وإذا ما اجتمعت هذه الفضائل كلها لأمير من الأمراء ، أو لحاكم من الحكام ، وكان لها في شعبه اصوات وأصداء ، وكان لها في شعبه الاعمال المعززة ، فذلك الأمير الحاكم مدرك لا محالة أعلى ذرى القوة والمجد والاحسان .

وإن للعرب كما قلت في مقدمة خطابي يقظات . وإن لهم وثبات . وإن لهم عودات ونهضات . أفلسنا اليوم في يقظة جديدة ؟ إن دلائل

هذه اليقظة كثيرة أعد منها ولا أعددها . بل أكتفي الآن من « منها » بهذا المعرض الدليل الأكبر ، وهـــذا المهرجان الدليل الأبهر . فهل تنهض أمة بلا ثقافة قومية عالية ؟ وهل يقوم وطن في هـذا الزمان بلا معدات النهضة الاقتصادية ؟

أجل إن العرب اليوم لفي يقظة جديدة ، وإن لليقظة هذه كل عوامل النهضة الكبرى ، أي العوامل الوطنية والاقتصادية والسياسية والأدبية .

أقول العرب ، واستوقفكم عندها . أنتم يا رجالات سورية ، وأنتم يا رجالات لبنان ، وانتم يا فتيان البلدين ، استوقفكم عند هذه الكلمة ؛ إنّا وإياكم عرب ، وإن في ذلك فخرنا الأكبر ، إنا لعرب وكفى ، فقد كانت العرب قبل الاسلام وقبل المسيحيين ، وستبقى العرب بعد المسيحية وبعد الاسلام .

إني أعد الزمان في تاريخ الامم بالقرون لا بالسنين . فنحن اليوم نحتفل بذكرى الف سنة مرت على وفاة المتنبي . وبعد مئة سنة يحتفل أبناء البلاد العربية بذكراه الطيبة في هذا البلد الطيب ، في دمشق القديمة الجديدة . وقد رفع حول علمها الأعلى علم العروبة الخالد ، أعلام العواصم كلها ، من القاهرة الى بغداد ، ومن حلب الى صنعاء اليمن . ويومئذ يقف الشاعر فيخاطب رب ذلك الملك ، شخصاً فرداً كان او برلماناً جامعاً ، فيمجده ويمجد المتنبي معاً مما قاله المتنبي في سيف الدولة .

تشرف عدنان به لا ربيعةٌ وتفتخر الدنيا به لا العواصمُ

دمشق : تموز سنة ١٩٣٦